أن مالكا يخالف من أحاديثه إلا ستة عشر حديثا فنظرت فاذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع ، ويقول بالفرع ويدع الأصل

ثم ذكر الشافعي فى رده على مالك : المسائل التى ترك الاخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين أو لرأى نفسه

ثم ذكر : ماترك فيه أقاويل الصحابة لرأى بعض التابعين أو لرأى نفسه وذلك : أنه ربما يدعى الاجماع وهو مختلف فيه

ثم بين الشافعي أن ادعاء : ان اجماع أهل المدينة حجة ، قول ضعيف . الرازى ص ٢٦

ويروى بعض الرواة : ان الشافعي انما وضع الكتب على مالك لأنه بلغه أن بالاندلس قلنسوة لمالك يستسق بها وكان يقال لهم : قال رسول الله «صلعم» فيقولون : قال مالك ، فقال الشافعي : إن مالكا بشر يخطىء فدعاه ذلك الى تصنيف الكتاب فى اختلافه معـــه وكان يقول استخرت الله تعالى فى ذلك . ابن حجر ص ٧٦

ومذهب الشافعي الجديد الذى وضعه فى مصر هو الذى يدل على شخصيته وينم عن عبقريته ويبرز استقلاله

« سئل احمد ما ترى فى كتب الشافعي التى عند العراقيين أهى أحب اليك ، أم التى بمصر ؟ قال : عليك بالكتب التى وضعها بمصر فانه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها ثم رجع الى مصر فأحكم تلك كما يرويه الذهبى فى تاريخه الكبير » هامش الانتقاء ص ٧٧ »

(يتبع)

اقرأ مجانا

بدلا من أن تشترى الكتب الجديدة يمكنك أن تشترك فى المجلة الجديدة لصاحبها سلامه موسى ، سنة باربعين قرشا أو نصف سنة بعشرين قرشا . وبادارتهـــا مئات من الكتب الحديثة فى العربية والافرنجية ، فلتأت تستعير منها ما تحب قراءته من دار الادارة فى ١٢ شارع نوبار بجوار المالية وعين بذلك هذه الكتب

صفى الدين الحـــلى

— ٢ —

هذه هى الناحية اللفظية ، وأما خصائص معانيه فانها تتمثل فى شدة اتصالها بعلوم البيان من كثرة التشبيه واستعمال المجاز والكنايات ، وقد ساعده على الاجادة فى ذلك ماوهبه من قوة الخيال ودقة المشاهدة كما سنعرف ذلك حين التحدث عن وصفه . وتتمثل أيضا فى طغيان الاشارات والمصطلحات العلمية عليها إذ تراه يستغل معارفه فى علوم الفقه والحديث والفلسفة والتصوف فى استعارة معانيه لأى موضوع شاء ، وكثيرا مايضرب الأمثال بحوادث التاريخ أو يستشهد بالقصص العامة الشائعة كما ترى قاعدة التربية الحديثة فى إظهار المعقول بثوب المحسوس .

وتعد معانيه فوق ذلك من النوع المتلىء الدسم ، فهى تتدفق قوية فى طريقها الى الغاية من غير تفكك أو فضول أو تدنس بالمعانى العامية المبتذلة ، ويحس قارؤها بروح الصدق سارية بين أجزائها فى أغلب الاغراض لأن الشعر كان قطعة من نفس صفى الدين لاعلما يحرك به لسانه ، أما فى غير الغالب فقد كان يقحم نفسه فى اغراض متكلفة لاصلة بينه وبينها غير حب المحاكاة والصنعة كما أنه انحدر إلى أعماق الابتذال حين خاض فى المجون ..

وقد جال صفى الدين بهذه المعانى فى جميع الميادين التى عرفها الشعر العربى إلى وقته ، حائزا قصب السبق فى كثير منها فتناول الفخر والمدح والوصف والغزل ، وهى أركان شعره الكبرى ثم الحكمة والخمر والزهد والالغاز والمجون ، وهى العمد الثانوية ، ونحب قبل ان نستعرض هذه الميادين ان نسجل هنا شهادة أحد المعاصرين له وهو صاحب «الفوات» المتقدم ذكره إذ قال : تعجبك ألفاظه المصقولة ومعانيه المعسوله ومقاصده التى كأنها سهام راشقة وسيوف مسلولة » ! وما أثمنها شهادة من معاصر كان أجدر به الجحود والنكران

***

لم يكن صفى الدين شاعرا قوالا فحسب ، وإنما كان بطلا مغوارا يعرف كيف يكتب بالسيف على الرقاب كما يخط بالقلم على الطرس ، وذلك لانه نشأ من أسرة نبيلة قوية كانت هى ضاحية الولاية على « الحلة » وبعض بلاد العراق المحيطة بها ، وكان يجانبها أعداء

وحساد كثيرون يحاولون ان ينزلوها من المكانة السامية بكل الوسائل من غدر دنيء أو قتال صريح ، حتى إن أحد أخوال هذا الشاعر قد قتل وهو بين يدى ربه فى المسجد العام فكان هذا الموقف الخطر داعيا إلى تنشئة أبناء الأسرة نشأة حربية باسلة ليستطيعوا ان يأخذوا من اعدائهم بالثأر ويردوا فى نحورهم كيدهم ولهذا كان أول الدواعى التى حدت بشاعرنا الى الشدو والغناء ذلك الشعور القوى الذى كان يجيش فى خلايا قلبه شعور العزة القومية والمجد والكرامة ، وقد غرس فيه هذا الشعور طموحا وثابا إلى مشارف العلا فظل يضرب على وتر الفخر والحماسة بأروع الأغانى الشجية التى تبرى صدر الجبان وتلهب عزيمة الشجاع المقدام ، فشعره فى ذلك مثل سام من أمثلة الأدب الحى القوى الذى ننشده اليوم فى عصر انحلال العزائم وخمود الشهامة ! وإذا شئت فترنم معه وهو يشيد بذكر قومه :

قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة ... يوما وان حكموا كانو موازينا
تدرعوا العقل جلبابا فان حميت ... نار الوغى خلتهم فيها مجانينا
اذا ادعوا جاءت الدنيا مصدقة ... وإن دعوا قالت الايام آمينا
إذا جرينا إلى سبق العلا طلقا ... إن لم نكن سبقا كنا مصلينا
تدافع القدر المحتوم همتنا ... عنا وتخصم صرف الدهر لوشينا
عزائم كالنجوم الشهب ثاقبة ... ما زال يحرق منهن الشياطينا

ولم يقصر الشاعر همه على مجرد الفخر بهذه الارادة التى تدافع القدر المحتوم وتخصم الدهر ؛ بل كان بين قومه فى منزلة الشاعر الجاهلى فى قبيلته يشترك عملا فى تدبير سياستهم ويحرضهم قولا على الحرب إذا ثلمت كرامتهم وينعى عليهم لو أحجموا يوما عن أداء الواجب ، وكأنما كان شعره جريدة « الحلة » القومية تشير عليهم كل آن بسديد الرأى وماضى العزم وفى نار هذه المواقع المشبوبة تلقى الشاعر دروسا من الحكمة جديرة أن توضع بين عينى كل من يحلم بالمجد أو يطمح إلى العلياء ، فهو رجل عملى لا يؤمن بالحظ والخيال الكاذب ، ولكنه يرى طريق النجاح مرصوفا بالكد والعناء لا تذلله إلا الارادة الجبارة والنفس التى لا تلين . وهو رجل يستنكف أن يجرى ماء الحياة بين جنبيه ثم لا يسعى ويقدم ويصعد حتى يراك قمة الشرف والسمو ، وكم يسخر ويثور على هؤلاء القوالين الذين يقتنعون بالالفاظ الرنانة والأصوات الجوفاء ، ألا تراه يقول

لست ممن يدل مع عدم المجد ... بفضل الآباء والأجداد
ما بنيت العلياء إلا بجدى ... وركوبى أخطارها واجتهادى
وبلفظى اذا نطقت وفضلى ... وجدالى عن منصبى وجلادى
غير أنى وإن أتيت من اللفظ ... م بلفظ يذيب قلب الجماد
لست كالبحترى أفخر بالشعـ ... ـر ، وأثنى عطفى فى الايراد
واذا ما بنيت بيتا تبخترت ... كأنى بنيت ذات العماد
إنما مفخرى بنفسى وقومى ... وقناتى وصارمى وجوادى

ومن منا لا يحفظ قوله السائر :

لا يبتطى المجد من لا يركب الخطرا ... ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد الملا عفوا بلا تعب ... قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

وله غير ذلك الشعر الجيد المصقول يصور فيه همته وتفضيله الموت على الذل والنفور من اليأس حتى فى ساعة الفشل والاستهزاء بالعدا والأخطار ، ويالها من مبادىء يبتسم لها المجد .

***

ولكنه ما كاد القرن الثامن يذر فى الأفق حتى احاطت بالعراق خطوب وفتن بانشقاق أهله على انفسهم وبأبطال المغول فى أحداثه فاتحين متجبرين ، فاضطرت الولايات الصغيرة التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها الى الاحتماء بما حولها من الدول الحصينة القوية . وهكذا اعتمدت أسرة الحلى على الدولة الارتقية المقيمة بماردين وعلى رأسها الملك المنصور نجم الدين غازى وقد كانت تتمتع باستقلال داخلى ورائى ، ولكنها تعترف بسيادة مصر ، وفى عاصمتها هذه يقول « ياقوت فى معجمه » : إنه ليس فى الارض أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم » ، فدخل الشاعر الى بلاط هذا الملك بحرمته بادىء الامر على مساعدة قومه والانتصار لهم على اعدائهم ، ثم مالبث ان صار شاعرا رسميا له ، يهتف بمناقبه وينثر ذكراه . وعند ذلك ابتدأ ظهور النوع الثانى من شعره وهو المدح .

حدث صفى الدين عن نشوء هذا الانقلاب فى شعره فقال : « كنت عاهدت نفسى ألا أمدح كريما وإن جل ، ولا أهجو لئيما وإن ذل ، ولكن الحوادث ألجأتنى إلى هجر عرينى .. فحططت رحلى بفناء فخر الأواخر والاوائل ملك ديار بكر بن وائل فذ ثبتوا بالاحسان

قدمى ، وصانوا عن بنى الزمان وجهى ودمى ، حمدت لقصدهم مطايا الآمال ، وقلت لاخيل عندك ولامال ، فليسعد النطق ان لم تسعد الحال » فمن ذلك الحديث نرى ان مدحه لم يكن نفاقا او رياء يتخذه وسيلة للاستجداء والسؤال ، وانما كان نتيجة عاطفة محمودة هى عاطفة الشكر وعرفان الجميل . ويدل كذلك على أنه كان يفهم غاية الشعر حق فهمه ويؤمن بقدسيته الفنية ، فكان يربأ به أن يكون عبد الغرض ورسول الحاجة ولاغرو فقد عرفنا صفى الدين شاعرا مطبوعا لا مصنوعا .

واذا أحصينا المدائح التى نظمها وهى كثيرة مستفيضة ألفيناها تكاد تنحصر فى أربعة مسالك : مدح الرسول وآله ، ومدح الاسرة الارتقية المذكورة ، وبنى قلاوون ، وبيت المؤيد ، وكلها تسير على على نمط متحد فى عدم الوصول إلى المدح إلا بعد مقدمات طويلة فى موضوع آخر يسترسل فيها ثم يبذل جهده فى اختراع وسائل التخلص إلى غرضه . غير أنه كان يتصرف فى انواع هذه المقدمات بألوان شتى ، فتارة تكون غزلا وأخرى وصفا لرحلة فبارة تكون فخرا أو خمرا ، وقد تكون وسما لمنظر طبيعى جميل ، فكأن كل قصيدة منقسمة الى شقين لكل منهما غايته وصورته ولا يلتقيان إلا بذلك الرابط الواهن الذى يسمونه « حسن التخلص »

وأوضح ماتراه فى معانى المدح النبوى ظاهرتان تشير احداهما إلى مذهبه والأخرى إلى خلقه : فقد عهدناه محبا مخلصا لآل البيت والسلالة العلوية يذكرهم كلما ذكر النبى تقربا اليه بأهله ، ويناضل تحت لوائهم كل من عرض لهم بمذمة أو نقيصة ، مرددا انهم أجدر الناس بالخلافة ، مسجلا على بنى العباس طغيانهم واغتصابهم لذلك الحق الثابت . وقد سأله نقيب الاشراف بالعراق أن يجيب عبد الله بن المعتز عن قصيدته التى غض فيها من قدر العلويين ، فأجابه بقصيدة دامغة الحجة كأنها جدال على لولا ما فيها من صور العاطفة الثائرة . وهذه العاطفة الشيعية تدل على حقيقة تاريخية كبيرة ، هى أن العلويين كانوا لايزالون يثيرون دعاتهم فى العراق أملا فى أن يخلفوا العباسيين بعد زوال دولتهم

أما الظاهرة الثانية فهى اعترافاته الخطيرة أمام النبى (ص) بما جنى فى حياته من عبث وجور على الشريعة يصفها بانها جرائم تندك منها الجبال ، ولا نحسبها مبالغة منه لأنا نعرفها حقيقة ثابتة فى خلقه ، إذ كان حى الشيطان واهى الزمام فى بداءة هواه يعطى لنفسه مانشتهى ثم يعود الى ربه معتقداً دائما أن الله غفور رحيم ، ولذا نظن أنه لم يفكر فى هذا الندم الا بعد ان وخط المشيب وآذنت شمس حياته بالمغيب .

وأما مدائحه فى بنى ارتق فحسبنا أن نقول عنها إنها جمعت كل ماأنبتت القرائح فى الأدب العربى من أوصاف الخلق الحميد ، ففيها كرم حاتم ووفاء السموءل وحكمة لقمان وشجاعة خالد وهكذا حتى تطوف على ذرى الفضائل الانسانية ، فهى مليئة حقا بالمبالغة والاغراق إلى أبعد مدى . ويظهر أن الشعراء كانوا لايعدون بلاغة المدح فى تصوير الحقيقة الواقعة وإنما يقيسونها بعظم المثل الاعلى الذى يتخيله الشاعر ثم يرسمه فى شعره . وهذه القصائد قسمان : قسم متفرق مرتبط بالمناسبات العارضة ، وقسم أخر مجتمع الاجزاء كديوان مستقل يحتوى على تسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتا وقد اسماه (دور النحور فى مدح الملك المنصور)

(له تكملة) ضياء الريس

مطبعة سكر
تنشر الصحف تبعث المؤلفات
ممونة بأحدث ماكينات التطبير وصانعة
الدفاتر وتجليد الكتب تفننوا اليها
بأوراقكم وأفكاركم ترد لها لكم كتبا
مجلات ودفاتر تبارك الله أحسن الخالقين